محـــرجات . . .

الأســـتاذ على الجندى

كان المجلس مرصعاً بكواكب لامعة من الأدباء والأديبات ، فدار الحديث حول مبالغة بعض الناس فى كتمان سنهم ، وأن أديباً كبيراً قضى نحبه ولم يعرف سنه أحد ! حتى كأنها من مفاتح الغيب التى استأثر الله بعلمها ! وهنا انبرت أديبة نابهة فقالت : الناس جميعاً فى ذلك سواء بدليل أن الأستاذ ـ وأشارت إلى ـ لا تسعفه شجاعته بإخبارنا عن سنه ! فدارت بى الأرض الفضاء ، وأطرقت قليلاً أزور فى نفسى كلاماً ، فلحظت الشيطانة ذلك ، وعلمت أن وراء الإطراق ما وراءه ! فاستدركت قائلة : على شرط أن يقول الصدق كل الصدق ، لا شىء غير الصدق !

وقد لزمت رأى هذه الروح الرثائية فى معظم شعره ، وفى معظم نظراته التى كان ينظم فيها الشعر لنفسه خاصة ، ونقول لنفسه خاصة ، لأن لرأى منظومات كان (يصنعها تحت الطلب) ، وهى منظومات — أو أغان — لنا فيها رأى ربما أعلناه فيما بعد . وتتجلى هذه الروح الرثائية فى قصيدته (إلى أخي البعيد ج ٢) ، التى يتمنى فيها أوبة هـذا الأخ المسافر . فيحس الإنسان أنه يرثيه بشعر من أجود أشعار الرثاء ... وتتجلى أيضاً فى قصيدتيه الفريدتين (الجمال العاطل — والجمال الراحل ج ٢) . ثم قصيدته (اللقيط) ، وفى (غريب يغنى) ، و (مستقبل الحب) و (إلى البدر) ، و (شكوى عليل) ، و (طيور الأمانى) ، و « شعر الدموع » ، و « الشيب الباكر » . إلى آخر هذه المجموعة المؤثرة من أشعار رأى الإنسانية الباكية التى جمعها الجزء الثانى من ديوانه ، والتى ترن أصداؤها فى جميع أغانيه

(يتبع)

دميني مشبة

ويحك أيتها الإنسانة ! إن الصدق ليكون أحياناً معجزة المرء كما يقول بعض السلف رحمه الله !

ومع أنى لم أتجاوز دائرة الشباب ، وهى دائرة (مرنة) والحمد لله ! ومع أنى لا أستجيز الكذب إلا فى الشعر ، فقد أحسست ميلاً شديداً إليه ! وخيل إلى أنه لا بأس فى هذا المقام أن أطرح من عمرى بضع سنوات ! ولكنى عدت فتذممت من ذلك ، ووجدت عنه مندوحة فى قولى :

أعلم أنى ولدت فى أيام حرب من الحروب المشهورة ، فقال أديب : لعلها حرب البسوس ! وقال آخر : لعلها حرب الردة ! فقالت الأديبة : هذا تحامل شديد ! أظنها : حرب « المائةعام » ! فقلت : ولم لا تكون حرب « الوردتين »[1] ! فضحكوا وضحكن ! وانفسح المجال للمفاكهة البريئة ، فتنوسى السؤال ، وكفى الله المؤمنين القتال !

وحينما كنت مدرساً بالتجارة ، جاءتنا من الوزارة (نشرة) تطلب فيها من المدرسين أن يخبروها بأسمائهم وعناوينهم وشهاداتهم ومرتباتهم وأسنانهم ، والخطب فيما عدا السن يسير ، ولكن من الذى يستطيع أن يدون اسمه على مرأى ومسمع من زملائه ؟! أشهد لو أن الوزارة ضاعفت لهم الحصص ، أو قطعت عنهم المرتبات ما ثاروا عليها هذه الثورة ! وطال تردد المسألة بين الناظر والمدرسين على غير طائل حتى كادت تحدث الجفوة ، وأخيراً فطن الناظر لما كان يجب أن يفطن له أولاً ، فاستدعاهم إلى مكتبه ، وقال — وهو يضحك — لقد عرفت السر ! ليبح كل واحد منكم لى بسنه على انفراد وعلى عهد موثق أن أطويه فى صدرى ! وهنا برح الخفاء وانفرجت الشفاه عما أجنته السرائر ! ولكن أستطيع أن أزعم : أن كثيراً مما قيل تبرأ منه شهادات الميلاد !

وإنى لأعرف قوماً يجهلون زمن مولدهم ! أو قل : يتجاهلونه فلا يحتفلون به ، كما يحتفل بعض الناس ! ويلذ لهم أن يذهلوا

(١) حرب (المائة عام) والوردتين من حروب أوربا فى القرون الوسطى

عنه عامدين متعمدين ! ومع أن ذلك مغالطة فى الحقيقة المرة لا تجدى عليهم شيئاً ، إلا أن النفوس تأنس لهذه المغالطة وتسكن إليها !

ولا يصح أن يكون هذا موضع العجب ، لأنه فطرة فى الإنسان يستوى فيها الرجل والمرأة ، فالتعلق بالشباب يعادل التعلق بالحياة ، بل الحياة فى أنضر عهودها وأبهى مظاهرها ، وكل سنة تمر علينا تبعدنا من هذا الشباب المحبب الموموق بقدر ما تدنينا من شىء كريه مقيت هو الهرم الذى يسلمنا إلى الفناء !

وإنه ليروعك أن ترى شاعراً زميتاً جاداً صارماً كالمتنبى يبكى الشباب ، وهو يرفل فى ورقه النضر ويمرح فى ظله السابغ فيقول :

ولقد بكيت على الشباب ولِمّتى مُسودّة ولمـاء وجهى رونق
حذراً عليه قبل يوم فراقه حتى لكدت بماء جفنى أشرق

وصدق عمرو بن العلاء فى قوله : ما بكت العرب شيئاً ما بكت الشباب ، وما بلغت به قدره . كما صدق الأصمعى حين يقول : أحسنُ أنماط الشعر : المراثى والبكاء على الشباب !

وإنك لتستطيع أن تقدر مبلغ حرص الإنسان على الشباب ، وحسرته على زواله من هذه النادرة التى حدثت بين الرشيد ومغنّيه ابراهيم الموصلى ، مع ما يملك الملوك من وسائل تغنيهم عن الشباب أو تعزّيهم عنه على الأقل : جاء فى أمالى المرتضى : أن إسحاق الموصلى حدث عن أبيه ابراهيم . قال : غنّيت بين يدى الرشيد يوماً والستارة منصوبة :

وأرى الغوانى لا يُواصلن امرءاً فقد الشباب وقد يصلن الأمردا

فطرب الرشيد واستعاده وأمر لى بمال . فلما أردت الانصراف وجه إلىّ كلاماً شديداً وقال : أتتغنّى بهذا الصوت وجوارى من وراء الستارة ؟ ! لولا حرمتك لضربت عنقك ! قال ابراهيم فتركت الصوت والله حتى نسيته !

وقد كنت أظن أن كتمان السن والمغالاة فى إخفائه من سمات هذا العصر الذى لانت فيه الأخلاق ، واشتد الحرص على المتع ، وكثر فيه الزور والزيف ، ولكنى وجدت ذلك سنة القدامى من أعلام السلف ؛ فى النجوم الزاهرة : أن الإمام أبا بكر الأنصارى كان إذا سئل عن سنه يقول : أقبلوا على شأنكم ، لا ينبغى لأحد أن يُخبر عن سنه ؛ إن كان صغيراً يستحقروه ، وإن كان كبيراً يستهرموه ! ثم ينشد :

لى مُـدّة لا بدّ بالغُـها فإذا انقضت وتصرمت متُّ
لو عاندتنى الأسـدُ ضاريةً ما ضرّنى ما لم يَجِ الوقت

وفى نفح الطيب يحدث المقّرى الأكبر عن نفسه قائلاً : كان مولدى بتلمسان ، ووقفت على تاريخ ذلك ، ولكنى رأيت الصفح عنه ، لأن أبا الحسن بن مُؤمن سأل أبا طاهر السّلفى عنّ سنه ، فقال : أقبل على شأنك ؛ فإنى سألت أبا الفتح بن زيّان عن سنه فقال : أقبل على شأنك ؛ فإنى سألت على بن محمد ابن اللبّان عن سنه فقال : أقبل على شأنك ؛ فإنى سألت حمزة ابن يوسف السهمى عن سنه فقال : أقبل على شأنك ؛ فإنى سألت أبا بكر المنقرى عن سنه ، فقال : أقبل على شأنك ؛ فإنى سألت الترمذىّ عن سنه فقال : أقبل على شأنك ؛ فإنى سألت بعض أصحاب الشافعى عن سنه فقال : أقبل على شأنك ؛ فإنى سألت الشافعى عن سنه فقال : أقبل على شأنك ؛ فإنى سألت مالك بن أنس عن سنه ، فقال : أقبل على شأنك ؛ ليس من المروءة للرجل أن يخبر عن سنه !

وقد زاد بعض الأقدمين على كتمان السّن ، كتمان السرّ والمال والمذهب ، وفيها يقول الحسين البغدادى كما نقله معجم الأدباء :

احفظ لسانك لا تبح بثلاثة سر ومال، ما استطعت، ومذهب
فعلى الثلاثة تُبْتَلَى بثلاثة بمكفّر وبحاسـد ومكذّب

وقد جاء فى كتمان المال : ما رواه الكامل فى المبرد : من أن عبد الملك بن مروان سأل عبد الله بن يزيد بن خالد — وكان من العقلاء — عن مقدار ماله ، فقال له : شيئان لا عيلة علىّ معهما : الرضاء عن الله ، والغنى عن الناس . فلما خرج قيل له : هلا أخبرت الخليفة ! قال : لا يعدو أن يكون قليلاً فيحقرنى ، أو كثيراً فيحسدنى .

فى الجنة